تَعَالِيمُ الإسلامِ في ضَبْطِ الصَّوت الإنساني

د. محمَّد سعيد اولاد علي
جامعة عبد المالك السَّعدي
المغرب

الملخَّص:

يسعى هذا البحث إلى إبراز شمولية الفقه الإسلامي واستيعاب أحكامه لمختلف مناحي الحياة الإنسانية، وذلك من خلال دراسة القواعد والضوابط الشرعية المنظمة لاستخدام "الصوت الإنساني" في تمظهراته وأبعاده المتعددة. ويعتمد البحث على المنهج الاستقرائي للنُّصوص والأدلَّة الشَّرعية لاستنباط الأحكام المؤطِّرة للصوت البشري، بهدف التوصل إلى إجابة علمية دقيقة عن كيفية ضبط الإسلام صوتَ الإنسان. وتكمن أهمية الدِّراسة في تقديم ذخيرةٍ تشريعيةٍ توجيهية لضبط سلوكيات أصوات المكلفين في ظل تصاعد ظاهرة الضوضاء والضجيج في العصر الحديث، بما يعكس عبقرية الفقه الإسلامي ومرونة الوحي الإلهي واستيعابه لمستجدات الحياة المعاصرة.

الكلمات المفتاحية :الصوت الإنساني، الشريعة الإسلامية، الفقه الإسلامي، الأحكام الشرعية، الضوضاء.

Abstract:

This study highlights the comprehensiveness of Islamic jurisprudence (Fiqh) and its capability to address all aspects of human life by examining the Sharia rules regulating the "human voice" across its various manifestations and dimensions. Employing an inductive methodology, the research analyzes primary religious texts and evidence to address the central question: *How does Islam regulate the human voice?* The study provides a legal and ethical framework to govern vocal behavior in an era increasingly dominated by noise pollution and excessive clamor. Ultimately, it demonstrates the ingenuity of Islamic jurisprudence and the all-encompassing nature of Divine Revelation in providing practical solutions for contemporary societal challenges.

المقدِّمة:

بسم الله الرحمان الرحيم، والحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على خير الخلق وصحابته أجمعين، وبعد:

فإنَّ الإنسان من صناعات الله الحكيم، قال سبحانه: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1]، ومن مظاهر الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن زوَّد الإنسان بآليات الإدراك والسَّعي والعيش والتواصل؛ من حواس، وعقل، ونطق. ولم يترك الناس إلى عقولهم في استخدام أدوات البقاء وإحقاق الاستخلاف، بل أنزل إليهم وحيه الحكيم يرشدهم إلى استخدام كل الآليات وفق ما يرضاه الصانع الحكيم، ووفق ما ينسجم مع الفطرة ويحقق غاية الاستخلاف. وكان مما زود الخالقُ به الإنسان واصطفاه عن الخلق تكريما النطقُ، وأعطاه القدرة على التَّنقُّل بين مستويات من الصوت اتكاء على ما أودعه فيه من قوة صناعة الكلام.

واذا كان الإنسان كائنا ناطقا، فإن الشَّرع قد حدَّد حدودًا للنطق، وفصَّل في مضامين المنطوق بنصوص كثيرة؛ فرضي من الناس القول الطَّيب، وزجرهم عن القبيح في شتّى صوره. وفي المباح من المنطوق (الكلام) تدخّل الشّرع ليرشد الإنسان إلى هيئة النطق وطبقة الصوت التي يلزم الإنسان المؤمن نهجَها في تواصله مع الآخرين. ولو أنّ الوحي سكت عن هذه الزاوية من التشريع لأصاب الناسَ حرجٌ في سعيهم إلى درك طبقات الصوت عند مخاطبة بعضهم بعضا، ولما علموا كيفية حفظ مقامات الجهات العليّة عند الخطاب؛ من حق الله والرسول صلى الله عليه وسلم، وحق الوالدين ومن في مقامهما من أولى الفضل والأمر عند التّخاطب.

والمتأمّل في النّصوص سيدرك أن الصحابة الكرام حصل معهم شيءٌ من ذلك في بداية التشريع، وغاب عنهم علم اختيار الطبقة الصوتية المناسبة لمخاطبة نبيهم صلى الله عليه وسلم، أو طبقة الكلام عند ذكرهم الإله سبحانه، إذ لا عهد لهم بهذه الجهات في ممارسة التّخاطب؛ فقد كانوا أميين خاليين من الرسالة والنبوة حتى امتن عليهم الله سبحانه بالمعرفة والإنباء، وعضّد ذلك بإرشادهم إلى فلسفة الإسلام في استخدام أصواتهم عند تواصلهم مع خالقهم، أو محاورتهم لنبيّهم، أو مخاطبة بعضهم بعضًا في نسق متكامل يعبّر عن هيمنة الشريعة وتخلّلها كلّ طاقات الإنسان، وقوتها في احتواء سؤالات البشر والجديد من نوازلهم ومستجدات حضارتهم إلى يومنا هذا.

وقصد الإجابة عن إشكال الصوت الإنساني في ميزان الإسلام وكيفية ضبط الشّريعة طبقات صوت الإنسان عند تواصله مع الإله ومع المخلوقين؟ سأتناول الموضوع وفق الخطوات الآتية.

المبحث الأول: مفهوم الصّوت لغة واصطلاحاً

المطلب الأول: الصوت في اللغة

جاء في "مقاييس اللغة": "(صَوَتَ) الصَّاد والواو والتَّاء أصلٌ صحيحٌ، وهو الصَّوتُ. وهو جنسٌ لكلِّ ما وقرَ أُذُنِ السّامع. يُقالُ: هذا صوتُ زيدٍ. ورجلٌ صيِّت، إذا كان شديد الصَّوتِ؛ وصائتٌ إذا صاحَ"[2].

وفي "تاج العروس": "صاتَ يَصوتُ، كقالَ يقولُ. وصاتَ يَصاتُ، كخَافَ يخافُ، صوتًا فيهما فهو صائتٌ، أي صائحٌ.

والصَّوتُ: الجرسُ. وقال ابن السكيت: صوتُ الإنسان وغيره. والصَّائتُ الصَّائحُ"[3].

---

[1] سورة النمل، الاية:90

[2] ابن فارس –أحمد–. أبو الحسين(ت:390هـ). معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبعة: دار الفكر، سنة:1399هـ–1979م، ج:3، ص:318-319

[3] الزَّبيدي –محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس تحقيق: جماعة من المختصين، طبعة/ وزارة الإرشاد والأنباء –المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة: (1965-2001م)-(1385-1422هـ)، ج:4، ص:598

وحدَّه ابن جنّي، حين قوله: "فإنَّ الصوت مصدر صاتَ الشَّيءُ يصوتُ صوتًا، فهو صائت، وصوَّتَ تصويتًا فهو مصوِّتٌ، وهو عامٌ غير مُختصٍّ. يُقالُ: سمعتُ صوتَ الرَّجلِ، وصوتَ الحمار. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[4]. وقال الشّاعرُ:

كأنّما أصواتُها في الوادي أصواتُ حِجٍّ من عُمانَ غادي

وقال ذُو الرُّمَّة:

كأنَّ أصواتَ، من إيغالهنَّ بنا، أواخر المَيس، أصواتُ الفراريج[5]

يريدُ: كأنَّ أصواتَ أواخر الميس من إيغالهن بنا أصواتُ الفراريج (...) والميس: خشبُ الرَّحل. (...) ويقالُ: رجلٌ صاتٌ أي: شديد الصَّوتِ (...) والصَّوت مذكَّر، لأنَّه بمنزلة الضَّربِ والقتل والغدر والفقر"[6].

وورد في "لسان العرب": "الصَّوتُ الجرسُ، معروفٌ مذكَّر. (...) والجمع أصواتٌ. وقد صاتَ يصوتُ ويَصاتُ صوتًا، وأصاتَ، وصوَّت به: كلُّه نادى. ويُقالُ: صوَّتَ يصوِّتُ تصويتًا، فهو مُصوِّتٌ، وذلك إذا صوَّت بإنسان فدعاه. ويُقالُ: صاتَ يصوتُ صوتًا، فهو صائت، معناه: صائح"[7].

وبتأمّل الدّلالة اللغوية في المعاجم، يتّضحُ أن الصَّوت: عبارة عن كل شيء يقعُ في أذن السَّامع، أي الجرس بحسب بعض المعاجم. ولا يختصُّ لفظُ "الصَّوت" بالإنسان فقط، بل هو عبارة مشتركة. والَّذي سيميز الصّوت الإنساني عمَّا عداه من الأصوات هي التَّعاريفُ الاصطلاحية التي تأتي.

المطلب الثّاني: مفهوم الصّوت في الاصطلاح

ورد في "الكلِّيات" في تقييد مفهوم الصوت بحدٍّ، "قالوا في تعريف الصَّوت: هو كيفية قائمة بالهواء تحدث بسبب تموُّجه بالقرع أو القلع فتصل إلى الصماخ بسبب وُصول محلهَا وهو الهواء، وليس كذلك، إذ لو كان قائمًا بالهواء لما سُمع من قعر الماء وكذا من وراء جدارٍ دق، ولا يُشترط لإدراكه وُصول الهواء المقروع لهذين، ولأنَّه يُسمع من المكان العالي، والهواء لا يترل طبعًا ولا قسرًا. والصَّوتُ أعمُّ من النُّطق والكلام. (...) وما لا يسمع من المتكلِّم من كان يقربُ منه، فهو دندنة لا كلام. وما خرج من الفهم إن لم يشتمل على حرفٍ فهو صوت، إن اشتمل و لم يُفد معنى فهو لفظ، وإن أفاد معنى فقول"[8].

وجاء في "دستور العلماء"، "الأصوات: كلُّ لفظٍ حُكي به صَوتٌ، نحو غاق حِكاية عن صوتِ الغُراب أو صوت به للبهائم نحو: نخ لإناخة البعير"[9].

وعرَّف ابن جني الصوت بالقول: "اعلم أنَّ الصَّوتَ عرضٌ يخرج مع النَّفس مُستطيلًا مُتَّصِلًا، حتَّى يعرُضُ له في الحلق والفم والشَّفتين مقاطعُ تُثنيه عن امتداده واستطالته، فيُسمَّى المقطعُ أينما عرضَ له حرفًا. وتختلفُ أجراسُ الحروف بحسب اختلاف مقاطعها"[10]. ومن هنا

---

[4] سورة لقمان، الآية:18

[5] جمعُ فروج. وهو الذكر الفتي من ولد الدّجاج

[6] ابن جني –عثمان– أبو الفتح. سر صناعة الإعراب، تحقيق: الدكتور حسن هنداوي، ج: 1، ص:9-11

[7] ابن منظور–جمال الدين– أبو الفضل. لسان العرب، طبعة: دار صادر–بيروت–، الطّبعة: الثالثة، سنة:1414هـ، ج:2، ص:57

[8] الكفوي –أيوب بن موسى–، أبو البقاء(ت:1094هـ). الكليات –معجم في المصطلحات والفروق، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، طبعة: مؤسسة الرسالة، بيروت: ص:562

[9] عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري. جامع العلوم في اصطلاحات الفنون. عرَّب عباراته الفارسية: حسين هاني فحص. طبعة: دار الكتب العلمية–بيروت–الطبعة: الأولى، سنة: 2000م–1461هـ، ج:1، ص:91

[10] ابن جني –عثمان– أبو الفتح (ت:392هـ) سر صناعة الإعراب، تحقيق الدكتور: حسن هنداوي، ج:1، ص:6

حسب ابن جني سمِّيت حروف المعجم حروفًا، وذلك أنَّ الحرف حدُّ منقطع الصَّوتِ وغايته وطرفه، كحرف الجبل ونحوه[11]. كما أنَّ الصَّوتَ عامٌ غير مُختص كما أفاد ابن جني، "يقال: سمعتُ صوتَ الرَّجل وصوت الحمار، أي أنَّ الصَّوتَ من الأدوات المشتركة، بينما يختصُّ الحرفُ بالأصوات البشرية"[12]

وفي "الكشّاف"، "الصّوت بالفتح وسكون الواو ماهيةٌ بديهية لأنّه من الكيفيات المحسوسة. (...) فقيل: الصَّوتُ هو تموُّجُ الهواء. وقيل: هو قلعٌ أو قرعٌ. والحق أنّ ماهيته ليست ما ذُكر، بل سبب الصوت القريب التموُّج، وليس التموج حركة انتقالية من هواء واحد بعينه، بل هو صدمٌ بعد صدم، وسكون بعد سكون، فهو حالة شبيهةٌ بتموُّج الماء في الحوض إذا أُلقي حجرٌ في وسطه. (...) ثمَّ الصوتُ كيفيةٌ قائمةٌ بالهواء تحدُثُ بسبب تموجه بالقرع أو القطع يحملها الهواء إلى الصِّماخ فيُسمعُ الصَّوت لوصوله إلى السَّامعة، لا لتعلُّق حاسَّة السَّمع بذلك الصَّوت"[13]

وعرَّفه الرَّاغب بقوله: "الصوت هو الهواء المنضغط عن قرع جسمين، وذلك ضربان: صوتٌ مجرَّدٌ عن تنفُّسٍ بشيءٍ كالصوت الممتد، وتنفّس بصوت ما.

والمتنفَّسُ ضربان: غير اختياري كما يكون من الجمادات ومن الحيوانات. واختياري كما يكون من الإنسان، وذلك ضربان: ضربٌ باليد كصوتِ العود وما يجري مجراه، وضربٌ بالفم. والذي بالفم ضربان: نطقٌ وغير نُطق. وغير النّطق كصوتِ النَّاي، والنّطق منه إمَّا مُفرد من الكلامِ، وإمّا مركَّب، كأحد الأنواع من الكلام[14].

وعرّف اللغويون المحدثون الصّوت بتعاريف، منها تقييد تمام حسان حين قوله: "فالصّوتُ عملية حركيةٌ يقومُ بها الجهازُ النطقي وتصحبها آثار سمعيةٌ معيَّنة تأتي من تحريك الهواء فيما بين مصدر الصَّوت، وهو الجهاز النطقي ومركز استيعابه وهو الأذن"[15].

أمّا إبراهيم أنيس، فحدَّ "الصوت الإنسانيَّ" قائلًا: "هو ككل الأصوات ينشأ من ذبذبات مصدرها عند الإنسان الحنجرة. فعند اندفاع النَّفس من الرِّئتين يمرُّ من الحنجرة فيُحدث تلك الاهتزازات التي بعد صدورها من الفم أو الأنف تنتقل خلال الهواء الخارجي على شكل موجات حتَّى تصل إلى الأذن"[16].

المبحث الثاني: ضبط الصوت الإنساني في التواصل مع الخالق سبحانه

التواصل مع الخالق –تعالى– عبادةٌ يقوم بها المؤمن في تجليات متعددة سواء الصلاة، أو الذكر، أو الدُّعاء. فبأي طبقة صوتية يخاطب الإنسان ربَّه وخالقه؟ وهل حدّد الوحيُ مستوى الصوت الإنساني عند التواصل مع الذات الإلهية العليَّة؟

كما أن الإنسان لم يكن يعلم حقيقة الذات الإلهية، ولا يعلم مسمَّى الإيمان إلاَّ بعد نزول الوحي مبيِّنا، فإنَّه يجهل الطبقة المثلى في التَّحاور مع الخالق وذكره. وهو مفتقرٌ إلى بيان من الخالق سبحانه ذاته عن طبقة الصوت التي يحسن بالإنسان مخاطبة خالقه بها، والتي يرضاها الإله ويثيب صاحبها.

---

[11] المصدر نفسه، ص:14

[12] يُنظر: زبيدة حنون، جامعة عنابة. البحث الصَّوتي عند ابن جني على ضوء الدِّراسات الحديثة. مجلة اللغة العربية، العدد:15، ص:92

[13] التهانوي –محمد بن علي– (ت: بعد1158هـ). موسوعة كشَّاف اصطلاح الفنون والعلوم، مراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، طبعة: مكتبة لبنان ناشرون –بيروت، الطبعة: 1، سنة:1997م، ج:2، ص:98-99

[14] الراغب الأصفهاني –الحسين بن محمد– أبو القاسم (ت:502هـ). المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، طبعة: دار القلم، الدار الشامية –دمشق– بيروت. الطبعة: الأولى، سنة:1312هـ، ص:496

[15] تمام حسان عمر. اللغة العربية معناها ومبناها، طبعة: عالم الكتب، الطبعة الخامسة، سنة:1327هـ–2002م، ص:66

[16] إبراهيم أنيس. الأصوات اللّغوية، طبعة: مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بمصر، ص:7

وأشكلت هذه الجزئية من التكليف على الصحابة الأوائل –رضوان الله عليهم–، فتدخَّل النبي –صلى الله عليه وسلَّم– بوحي من الله إلى إرشاد الناس لدرجة الصوت المناسبة في ذكر خالقهم والتواصل معه. الأمر الذي تبيّنه هذه الحادثة من صحيح البخاري.

عن أبي موسى الأشعري قال: "كنَّا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فكنَّا إذا أشرفنا على وادٍ، هلَّلنا وكبَّرنا وارتفعت أصواتنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أيُّها النَّاس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبا، إنَّه معكم إنَّه سميعٌ قريبٌ، تبارك اسمه وتعالى جدُّه"[17].

ومن طريق آخر عن أبي موسى الأشعري قال: "كنَّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في غزَاة، فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نعلو شرفًا ولا نهبط في وادٍ إلاَّ رفعنا أصواتنا بالتَّكبير. قال فدنا منَّا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فقال: "يا أيُّها النَّاس، اربعوا على أنفسكم، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبا، إنَّما تدعون سميعًا قريبا" ثم قال: "يا عبد الله بن قيس، ألا أعلِّمك كلمة هي من كنوز الجنَّة، لا حول ولا قوة إلا بالله"[18].

وفي الخبر تحديد لدرجة الصوت التي يُذكر بها الإله سبحانه؛ وهي خفض الصوت لقرب المخاطَب ولاتصافه بالسمع والبصر. وفي الحديث تنصيصٌ على طبقة الصَّوت بدقَّة، وبيان الدرجة المثلى في الصوت عند ذكر الخالق سبحانه. وهي هنا على جهة الاستحباب كما بوَّب مسلم. ويُكره رفع الصَّوت بالذِّكر كما بوَّب البخاري.

"واربعوا على أنفسكم أي: ارفقوا، قال الطبري: فيه كراهية رفع الصَّوت بالدُّعاء والذكر، وبه قال عامة السَّلف من الصَّحابة والتَّابعين. وتصرُّف البخاري يقتضي أنَّ ذلك خاصٌّ بالتَّكبير عند القتال، أمَّا رفع الصَّوت في غيره فقد تقدَّم في كتاب الصلاة حديث ابن عباس أنَّ رفع الصَّوت بالذِّكر كان على العهد النبوي إذا انصرفوا من المكتوبة"[19].

وروي عن أبي معبد مولى ابن عباس أخبره أنَّ رفع الصَّوت بالذِّكر حين ينصرف النَّاس من المكتوبة كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلَّم. وعن ابن عباس: "كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته"

وفي رواية: "كنت أعرف انقضاء صلاة النبي صلى الله عليه وسلَّم بالتكبير"[20].

قال ابن حجر: "وفيه دليل على جواز الجهر بالذكر عقب الصلاة. قال الطبري: فيه الإبانة عن صحَّة ما كان يفعله بعض الأمراء من التَّكبير عقب الصلاة. وتعقَّبه ابن بطال بأنَّه لم يقف على ذلك عن أحد من السلف إلاَّ ما حكاه ابن حبيب في "الواضحة" أنَّهم كانوا يستحبون التَّكبير في العساكر عقب الصُّبح والعشاء تكبيرًا عاليًا ثلاثًا، قال: وهو قديم من شأن النَّاس.

قال ابن بطال: وفي "العتبية" عن مالك أنَّ ذلك محدثٌ. قال: وفي السياق إشعارٌ بأنَّ الصحابة لم يكونوا يرفعون أصواتهم بالذكر في الوقت الذي قال فيه ابن عباس ما قال. قلت: وفي التقييد بالصحابة نظر، بل لم يكن حينئذ من الصحابة إلاَّ القليل. وقال النووي: حمل

---

[17] محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله البخاري. صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، طبعة: دار ابن كثير، دار اليمامة –دمشق– ط: الخامسة، سنة:1414–1995م، ج:3، ص:91، كتاب الجهاد والسِّير، باب: ما يكره من رفع الصَّوت في التَّكبير

[18] المصدر نفسه، كتاب القدر، باب: لا حول ولا قوة إلا بالله، ج: 6، ص: 437

مسلم بن الحجاج –أبو الحسن– صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة: مطبعة البابي الحلبي وشركائه –القاهرة–، سنة:1374هـ–1955م. كتاب: الذكر والدعاء والتَّوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصَّوت بالذكر، ج:4، ص:76.

[19] أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني (ت: سنة852هـ). فتح الباري بشرح البخاري، اعتناء: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحي الدِّين الخطيب، طبعة: المكتبة السَّلفية –مصر– ط:1، سنة:(1380هـ–1390)، ج:6، ص:135

[20] صحيح البخاري، كتاب: صفة الصَّلاة –باب الذِّكر بعد الصَّلاة– ج:1، ص:288–289

الشافعي هذا الحديث على أنهم جهروا به وقتًا يسيراً لأجل تعليم صفة الذِّكر، لا أنهم داوموا على الجهر به. والمختار أن الإمام والمأموم يُخفيان الذِّكر إلاَّ إن احتيج إلى التَّعليم"[21].

وعليه، فالأصل في ذكر الله خفض الصَّوت إلا حيث دلَّ الدَّليل على وجوب العدول عن طبقة الإسرار إلى طبقة الجهر. ويعضِّد ما مضى من أحاديث وآثار وآيات في سياقات مختلفة، ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[22].

قال الطبري: "وقد اختلفوا فيما أُنزلت فيه هذه الآية، فقال بعضهم: نزلت في سائل سأل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، أقريب ربُّنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[2423].

فهذه الرواية تبرز حالة الحيرة التي شدَّت الناس زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وحثَّتهم على السؤال حول طبقة الصوت في التواصل مع الذات العليَّة؛ أبالنداء أم بالمناجاة –وإن كان الأثر فيه ضعف، فإنَّ الأول صحيح، والآيات تتظافر في تدخُّل الخطاب الإلهي في ضبط أصوات المكلَّفين عند مناداتهم لربِّهم وتواصلهم معه في شتَّى الحالات ومختلف العبادات، سواء تعلَّق الأمر بالدّعاء، أم الصلاة، أم الذكر مُطلقا. ومن ذلك:

المطلب الأول: صوت المكلَّف في الدّعاء

وهو مستفادٌ من موضعين في القرآن الكريم:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[25]. قال الطاهر بن عاشور مبينا دلالة الآية: "والتَّضرع إظهارُ التَّذلُّل بهيئة خاصة، ويُطلق التضرُّع على الجهر بالدعاء، لأن الجهر من هيئة التضرع، لأنَّه تذلُّلٌ جهري (...) تدعونه تضرعا وخفية بالجهر بالدعاء (...) ومن المفسرين من أبقى التضرُّع على حقيقته وهو التذلل، فيكون مصدرا بمعنى الحال، أي متذلِّلين، أو مفعولاً مطلقاً لـــ(ادعوا) لأنَّ التذلل بعض أحوال الدعاء، فكأنَّه نوعٌ منه، وجعلوا قوله: (وخفية) مأموراً به مقصودا به بذاته، أي ادعوه مخفّفين دعاءكم"[26]. وقال أيضا مبيِّنًا حكم الجهر بالدعاء ورفع الصَّوت به: "(...) حتى أوهم كلام بعضهم أنَّ الإعلان بالدُّعاء منهي عنه أو غير مثوبٍ عليه. وهذا خطأٌ؛ فإن النبي –صلى الله عليه وسلَّم– دعا علنا غير مرَّة، وعلى المنبر مسمعٍ من الناس وقال: "اللهم اسقنا"، وقال:" اللهم حوالينا لا علينا"، وقال: "اللهم عليك بقريش". وما رُويت أدعيته إلاَّ لأنَّه جهر بها يسمعها من رواها. فالصواب أن قوله تعالى: (تضرُّعاً) إذنٌ بالدُّعاء بالجهر والإخفاء، أمّا ما ورد عن النَّهي عن الجهر فإنَّما الجهر الشَّديد الخارج عن حدِّ الخشوع"[27].

---

[21] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج:2، ص: 325-326

[22] سورة البقرة، الآية :186

[23] ابن جرير الطبري، أبو جعفر (ت :310هـــ). جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن، طبعة: دار هجر–القاهرة–، الطبعة: الأولى، سنة:1422هـــ–2001م، ج:3، ص:222

وينظر كذلك: جلال الدين السيوطي. الدرر المنثور في التَّفسير بالمأثور، طبعة: دار الفكر –بيروت–، ج:1، ص:469

[24] والحديث بطرقه فيه ضعفٌ. قال أحمد شاكر: " الإسناد صحيح إلى الحسن، لكن الحديث ضعيف، لأنه مرسل، لم يسنده الحسن إلى أحد من الصحابة" يُنظر: أحمد بن علي بن حجر–أبو الفضل–. العجاب في بيان الأسباب، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، طبعة: دار ابن الجوزي، ج:1، ص:433

[25] سورة الأعراف الآية:55

[26] الطاهر بن عاشور –محمد–. التحرير والتنوير. طبعة الدار التونسية للنشر –تونس– ج:8، ص:171-172

[27] المرجع السابق، ج:8، ص:172

وقال القرطبي: "ومعنى (خفية) أي سرًّا في النَّفس ليبعد عن الرِّياء (...) والشَّريعة مقرِّرة أنَّ السِّر فيما لم يعترض من أعمال البرِّ أعظمُ أجراً من الجهر"[28].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿اذْ نَادىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[29]. قال الطاهر: "ومعنى الكلام أن زكرياء قال: يا ربِّ بصوت، وإنَّما كان خفيًّا لأنَّ زكرياء رأى أنَّه أدخل في الإخلاص مع رجائه أن يجيب دعوته ليلًا تكون استجابته مما يتحدَّث به النَّاس، فلذلك لم يدعه تضرُّعاً وإن كان التَّضرُّع أعون على صدق التَّوجُّه غالبًا، فلعلَّ يقين زكرياء كافٍ في تقوية التَّوجُّه، فاختار لدعائه السلامة من مخالطة الرِّياء. ولا منافاة بين كونه نداءً وكونه خفيًّا، لأنّه نداء من يسمع الخفاء"[30].

وقال صاحب "الأضواء": "أي دعاه في سرٍّ وخفية، وثناؤه جلاَّ وعلاَ عليه بكون دعائه خفيًّا يدل على أن إخفاء الدُّعاء أفضل من إظهاره وإعلانه. وهذا المعنى المفهوم من الآية جاء مصرَّحًا به في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[31]، وقوله تعالى: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[32]. وإنَّما كان الإخفاء أفضل من الإظهار؛ لأنَّه أقرب إلى الإخلاص، وأبعد من الرِّياء"[33].

وأورد ابن كثيرا خبراً عن الحسن البصري يقول فيه: "(...) ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على وجه الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السِّر فيكون علانية أبدًا. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدُّعاء، وما يُسمع لهم صوتٌ، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربِّهم، وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. وذلك أنَّ الله ذكر عبداً صالحًا رضي فعله فقال: ﴿اذْ نَادىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾. قال ابن جرير: يكره رفع الصَّوت والنِّداء والصِّياح في الدُّعاء، ويؤمر بالتَّضرُّع والاستكانة"[34].

المطلب الثاني: صوت المكلَّف عند الذِّكر

وهو مستفادٌ من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْاٰصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَٰفِلِينَ﴾[35]. قال ابن كثير:" (...) وأمَّا قوله: "تضرُّعًا وخيفة" أي: اذكر ربَّك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهرًا، ولهذا قال: (ودون الجهر من القول). وهكذا يُستحبُّ أن يكونَ الذِّكرُ؛ لا يكون نداء وجهراً بليغاً".[36]

وقال القرطبي: "(ودون الجهر) أي دون الرَّفع من القول. أي أسمع نفسك، كما قال: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[37]، أي بين الجهر والمخافتة، ودلَّ هذا على أنَّ رفع الصَّوت بالذِّكر ممنوعٌ"[38]. وأوضح ابن عطية دلالة الآية بالقول: "(واذكر ربَّك في نفسك) مخاطبة للنبي

---

[28] القرطبي، محمد بن أحمد –أبو عبد الله–. الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، طبعة: دار الكتب المصرية –القاهرة– الطبعة: الثانية، سنة:1384هـ–1964م، ج:7، ص:223

[29] سورة مريم، الآية:3

[30] التحرير والتَّنوير، ج:16، ص:62–63

[31] سورة الأنعام، الآية:63

[32] سورة الأعراف، الآية:55

[33] الشنقيطي، محمد الأمين (ت:1393هـ). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. طبعة: دار الفكر –بيروت– سنة:1415هـ–1995م، ج:3، ص:359

[34] ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، تحقيق: حكمت بن بشير، طبعة: دار ابن الجوزي –السعودية–، الطبعة: الأولى، سنة:1431هـ، ج:4، ص:45

[35] سورة الأعراف، الآية :205

[36] تفسير ابن كثير، ج:4، ص:148

[3737] سورةالإسراء، الآية:110

[38] القرطبي. الجامع لأحكام القرآن، ج:7، ص:355

-صلى الله عليه وسلَّم- تعمُّ جميع أمَّته، وهو أمرٌ من الله عز وجل بذكره وتسبيحه وتقديسه والثَّناء عليه بمحامده. والجمهور على أنَّ الذِّكرَ لا يكون في النَّفس ولا يراعى إلاَّ بحركة اللِّسان والمخافتة باللفظ"[39].

المطلب الثالث: صوت المكلَّف في الصلاة

أما فيما يخص ضبط صوت الإنسان في شعيرة الصلاة، فقد بوَّب البخاري في صحيح بابًا أسماه: "ولا تجهر بصلاتك ولا تُخافت بها" استحضاراً لآية الإسراء (ولا تجهر بصلاتك)، وأورد في سبب نزولها خبرا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[40] قال: نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلَّم مختفٍ بمكة، كان إذا صلَّى رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبُّوا القرآنَ ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلَّم- (ولا تجهر بصلاتك) أي بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآن (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تُسمعهم (وابتغ بين ذلك سبيلا)[41].

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها -في سبب نزول الآية السالفة- قالت: "أُنزل ذلك في الدُّعاء"[42].

وساق القرطبي في سبب نزولها خمسة أسباب[43]. وقال في معنى الآية: "والمخافتة: خفض الصَّوت والسُّكون (...) عبَّر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبَّر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودا﴾[44] لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما مرتبط بالآخر، لأنَّ الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود، فهي من جملة أجزائها، فعبَّر بالجزء عن الجملة، وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في المجاز"[45].

وحين تُتأمَّل حركات المؤمن في الصلاة، تجد فيها الجهر والإسرار والتنقُّل بين ذلك، ومستوى الصَّوت في ذلك عبادة يلزم عنها في المذهب سجود السهو عند الإخلال بمنطق الشرع في تنظيم صوت المكلف أثناء الصلاة. جاء في "مواهب الجليل" ومن المدوَّنة، قال مالك: "ومن سها فأسرَّ فيما يجهر فيه سجَدَ قبل السَّلام، وإن جهر فيما يُسرُّ فيه سجد بعد السلام، وإن كان شيئا خفيفًا من جهر أو إسرار وكإعلانه بالآية ونحوها في الإسرار، فلا سجود عليه"[46].

وكما نادى الشارع بخفض الصوت في بعض العبادات من قبيل: الذِّكر والدُّعاء، ففي مقابل ذلك نصَّ على رفع الصوت والجهر به في عبادات أخرى. ومما مُدح فيه رفع الصَّوت التَّلبية بالحجِّ والعمرة للرجال، مع اختلاف مستوى صوت النِّساء قياساً على ما ورد في وجوب خفض صوتهن بمجمع من الرِّجال خشية الفتنة، لا سيما إن كان الصوت حسناً.

ومن الأخبار الدالة على ندب رفع الصوت بالتلبية حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "صلى النبي صلى الله عليه وسلَّم بالمدينة الظهر أربعًا، والعصر بذي الحليفة ركعتين وسمعتهم يصرخون بهما جميعًا"[47]. وقال ابن حجر في توضيح الحديث السابق: "يصرخون بهما

---

[39] ابن عطية الأندلسي(ت:542هـ). المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، طبعة: دار الكتب العلمية -بيروت- الطَّبعة: الأولى، سنة:1422هـ، ج:8، ص:494

[40] سورة الإسراء، الآية:109

[41] صحيح البخاري، باب: ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها، ج:6، ص:87

[42] المصدر السابق، ج:6، ص:87

[43] ينظر: أحكام القرآن، ج:10، ص:343-344

[44] سورة الإسراء، الآية:78

[45] القرطبي. الجامع لأحكام القرآن، ج:10، ص:343-344

[46] شمس الدِّين، أبو عبد الله محمد بن محمد الحطَّاب الرُّعيني (ت:953هـ). مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، طبعة: دار الفكر، الطبعة:3، سنة:1412هـ-1992م، ج:2، ص:25

[47] صحيح البخاري، كتاب: الحج، باب: رفع: الصَّوت بالإهلال، ج:2، ص:138

جميعاً" أي بالحجِّ والعمرة (...) وفيه حجَّةٌ للجمهور في استحباب رفع الصَّوت بالتَّلبية"[48]. وساق الحافظ مجموعة من الأخبار تنتصر لاستحباب رفع الصوت بالتلبية"[49].

ولمّا كانت التَّلبية نداءً موحَّدًا لم يضر رفع الصَّوت في التواصل مع الخالق –سبحانه– على تلك الشاكلة، بعكس المواضع الأخرى التي لم تتوحَّد فيها الألفاظ والمطالب؛ فطُلب خفض الصَّوت كمِثل الدُّعاء في السجود والركوع وغيرها، لئلاَّ يقع الاضطراب والتَّشويش بفعل اختلاف الأصوات وتعارضها وعدم اجتماعها على صيغة واحدة.

ومن مواضع رفع الصوت التكبيرُ عند العيدين. عن أم عطية قالت: "كنَّا نؤمر أن نخرُجَ يوم العيد، حتى تخرج البكر من خدرها، حتى تخرج الحُيَّض، فيكنَّ خلفَ النَّاس، فيكبِّرن بتكبيرهم، ويدعون بدعائهم، يرجون بركة ذلك اليوم وطُهرته"[50] وقال البخاري:" وكان عمر يكبِّر في قبَّته بمنى فيسمعه أهلُ المسجد فيكبِّرون ويكبِّر أهل الأسواق ترتجُّ منى تكبيراً. وكان عمر يُكبِّر بمنى تلك الأيام وخلف الصَّلوات وعلى فراشه وفي فُسطاطه ومجلسه وممشاه تلك الأيام جميعاً، وكانت ميمونة تكبِّر يوم النَّحر، وكنَّ النِّساء يُكبِّرنَ خلفَ أبان بن عثمان وعمر بن عبد العزيز ليالي التَّشريق مع الرِّجال في المسجد"[51].

وعن محمَّد بن أبي بكر الثقفي قال: "سألت أنسًا ونحن غاديان من منى إلى عرفات عن التَّلبية كيف كنتم تصنعون مع النَّبي –صلى الله عليه وسلَّم–؟ قال: كان يُلبِّي الملبِّي لا يُنكِرُ عليه، ويكبِّرُ المكبِّرُ فلا يُنكِرُ عليه"[52].

ومن مواطن رفع الصوت في شريعة الإسلام رفع الصَّوت بالأذان؛ ولما كان الأذان للإعلام وجبَ رفع الصَّوت، وتدخَّل الشارع في الدلالة على ذلك والإلزام به كما في حديث عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه أنَّه أخبره أنَّ أبا سعيد الخدري قال له: "إني أراك تحبُّ الغنمَ والباديةَ، فإذا كنت في غنمك أو باديتك، فأذَّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنِّداء، فإنَّه لا يسمع مدى صوت المؤذِّن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ، إلاَّ شهدَ له يوم القيامة". قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله –صلى الله عليه وسلَّم"[53].

قال ابن حجر في تعليقه على الحديث: "وفي الحديث استحباب رفعِ الصَّوتِ بالأذان ليكثُرَ من يشهدُ له ما لم يُجهِدْهُ أو يتأذَّى به"[54].

كما أرشد الإسلام المكلَّف إلى رفعِ الصَّوت بالذِّكر بعد الصلوات المكتوبة كما في خبر ابن عباس رضي الله عنهما، عن أبي معبد مولى ابن عباس أخبره أن ابن عباس أخبره: "أن رفع الصَّوت بالذِّكر حين ينصرف النَّاس من المكتوبة كان على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلَّم–. وقال ابن عباس: "كنت أعلمُ إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته"[55].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كنت أعرفُ انقضاء صلاة النبي –صلى الله عليه وسلَّم– بالتَّكبير"[56].

قال النووي: "هذا دليل لما قاله بعض السَّلف أنَّه يُستحبُّ رفع الصَّوت بالتَّكبير والذِّكر عقب المكتوبة، وممن استحبَّه من المتأخرين بن حزم الظاهري. ونقل ابن بطال وآخرون أنَّ أصحاب المتبوعة وغيرهم متَّفقون على عدم استحباب رفع الصَّوت بالذِّكر والتَّكبير.

---

[48] فتح الباري، ج:3، ص:408

[49] ينظر المصدر السَّابق، ج:3، ص:406

[50] صحيح البخاري، كتاب: العيدين، باب: التَّكبير أيام منى وإذا غدا إلى عرفة، ج:2، ص:20

[51] المصدر السابق، ج:2، ص:20، رقم الحديث:969

[52] المصدر السابق، ج:2، ص:20، رقم الحديث:970

[53] صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب رفع الصَّوت بالنِّداء، ج:1، ص:125

[5454] ابن حجر. فتح الباري، ج:2، ص:89

[5555] صحيح البخاري، كتاب: الأذان، باب: الذِّكر بعد الصلاة، ج:1، ص:168. وصحيح مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الذِّكر بعد الصلاة، ج:1، ص:410

[56] صحيح البخاري، كتاب: الأذان، باب: الذِّكر بعد الصلاة، ج: 1، ص: 168

وحمل الشافعي رحمه الله تعالى هذا الحديث على أنَّه جهر وقتًا يسيرا حتَّى يُعلِّمهم صفة الذِّكر والتَّكبير، لا أنَّهم جهروا دائمًا، قال: فاختار للإمام والمأموم أن يذكر الله تعالى بعد الفراغ من الصَّلاة، ويُخفيان ذلك إلاَّ أنَّ يكون إمامًا يريد أن يُتعلَّم منه فيجهر حتى يَعلَم أنَّه قد تُعلِّمَ منه ثمَّ يُسِرُّ، وحُمِلَ الحديثُ على هذا" [57]. قال ابن حجر –في تعليقه على تعليقه على حديث ابن عباس: "وفيه دليل على جواز الجهر بالذكر عقب الصلاة"[58].

المبحث الثالث: ضبط صوت المكلَّفين في مخاطبة النبي –صلى الله عليه وسلَّم

تسعى شريعة الإسلام إلى حفظ مقامات النَّاس وحقوقهم وتنزلهم منازلهم عند التخاطب؛ فتحدِّد للمكلَّفين طبقة الصَّوت وصفته التي يحادثوا بها بعضَهم بعضًا. وقد وقعَ الصحابة الكرام –رضوان الله عليهم– في اختبار شديد، وفي ابتلاء لم يعيشوه من قبل. وهو اختبار اختيار طبقة الصَّوت التي يحاوروا بها النبي المرسَل –صلى الله عليه وسلَّم–. فقد ارتفعت أصواتهم في مجلسه يومًا، فكان ذلك سبب نزول آيات ترسم للناس هيئة مخاطبة النبي الأعظم –صلى الله عليه وسلَّم–؛ حيث نزلت آيات تحدِّد المخاطبين من الصحابة بإحباط أعمالهم، وتوجِّههم إلى طبقة الصَّوت التي ينهجوها في الخطاب بحضرة نبيهم تأديباً من الله لهم وللمؤمنين من بعدهم.

وشاهدُ هذه الجزئية الحادثةُ التي رواها البخاري عن ابن أبي مُليكة قال: "كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبي –صلى الله عليه وسلَّم– حين قدم ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل من برجل آخر، قال نافعٌ: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلاَّ خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُواْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيءِ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ اَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[59][60].

قال ابن الزبير: "فما كان عمر يُسمع رسول الله –صلى الله عليه وسلَّم– بعد هذه الآية حتى يستفهمه"[61] و لم يذكر ذلك عن أبيه، يعني جدَّه. وروي موصولاً عن ابن الزبير[62].

ومعنى الآية "أي لا تخاطبوه: يا محمَّد، ويا أحمد. ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله، توقيرًا له. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبي –صلى الله عليه وسلَّم–، ليقتدي بهم ضعفة المسلمين فنُهي المسلمون عن ذلك. وقيل: (لا تجهروا له) أي لا تجهروا عليه (...) لجهر بعضهم لبعض. الكاف كاف التَّشبيه في محلِّ النَّصب، أي لا تجهروا له جهرًا مثل جهر بعضكم لبعض"[63].

قال القرطبي: "وفي هذا دليلٌ على أنَّهم لم يُنهوا عن الجهر مطلقًا، حتى لا يسوغ لهم إلاَّ أن يكلِّموه بالهمس والمخافتة، وإنَّما نهوا عن جهرٍ مخصوص مقيَّد بصفة، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أُبَّهة النبوة وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرُّتب وإن جلَّت عن رتبتها (...) معنى الآية الأمر بتعظيم رسول الله –صلى الله عليه وسلَّم– وتوقيره وخفض الصَّوت بحضرته وعند مخاطبته، أي إذا نطقَ ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدِّ الذي يبلغه بصوته، وأن تغضُّوا منها بحيث يكونُ كلامه

---

[57] النووي. محي الدِّين يحيى بن شرف (ت:676هـ). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. طبعة: دار إحياء التُّراث العربي –بيروت–، طبعة: الثانية، سنة: 1392هـ، ج:5، ص:84

[58] فتح الباري، ج: 2، ص: 325

[59] سورة الحجرات، الآية :2

[60] صحيح البخاري، باب: لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي، ج:5، ص:137

[61] المصدر السابق، ج:6، ص:137

[62] ينظر: صحيح البخاري، ج:6، ص:137

[63] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج:16، ص:306

غالبًا لكلامكم، وجهره باهرًا لجهركم، حتى تكون مزيته عليكم لائحة، وسابقته واضحة،كشيَّة الأبلقِ، لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتبهروا منطقه بصخبكم"[64].

وهكذا ضبط الإسلام صوت أهله عند مخاطبة نبيهم –صلى الله عليه وسلَّم–، وحرمته ميِّتًا كحرمت حيًّا. "وقد كره بعض العلماء رفع الصَّوت عند قبره –عليه السلام–، وكره بعض العلماء رفع الصَّوت في مجالس العلماء تشريفًا لهم، إذ هم ورثة الأنبياء (...) قال أبو بكر بن العربي: حرمة النبي –صلى الله عليه وسلَّم– ميِّتًا كحرمته حيًّا، وكلامه المأثور بعد موته في الرِّفعة مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرِئَ كلامه، وجبَ على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يُعرضُ عنه، كما يلزم ذلك في مجلسه عند تلفُّظه به"[65].

ثمَّ بعد الحادثة، تنزَّلت آيةٌ تثني على من جعل طبقة صوته دون صوت النبي –صلى الله عليه وسلم–، وتعدهم بالمغفرة والثواب الكبير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[66] ومعناه –بحسب القرطبي–: "أي يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلَّموا إجلالاً له، أو كلَّموا غيره بين يديه إجلالاً له".[67]

وعن أبي هريرة قال: "لما نزلت (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ) صلى الله عليه وسلَّم، قال أبو بكر الصِّديق –رضي الله عنه–: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله، لا أُكلِّمك إلاَّ كأخي حتى ألقى الله عز وجل"[68].

ونظير فعل الخليفة الأوَّل، فعل عمرُ بن الخطاب طلبًا للثواب وتوقيرًا لمقام النبوة. كما شقَّ الأمر على الصحابي ثابت بن قيس الذي كان شديد الصَّوت فخشي أن تقصده الآية، كما في صحيح البخاري من طريق أنس بن مالك أنه قال: قال: النبي –صلى الله عليه وسلَّم– افتقدنا ثابت بن قيس، فقال رجلٌ: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسًا في بيته، منكِّسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ،كان يرفع صوته فوق صوت النبي –صلى الله عليه وسلَّم–، فقد حبط عمله، وهو من أهل النّار. فأتى الرجلُ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم–، فأخبره أنه قال: كذا وكذا، فقال(موسى بن أنس بن مالك): فرجع إليه المرَّة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: اذهب إليه، فقل له: إنَّك لست من أهل النَّار، ولكنَّك من أهل الجنَّة".[69]

وبهذا القدر، يتضح كيف أن الإسلام اهتم بضبط صوت المكلَّفين عند مخاطبتهم لنبيهم –صلى الله عليه وسلَّم–، فأنزل في شأن ذلك آياتٌ تؤدِّبُ الصَّحابة ومن بَعدهم إلى التزام هذه الأصول الأخلاقية الحضارية في التخاطب. ويمتد ضبط الإسلام صوت الإنسان إلى تنبيهه المؤمنين إلى صفة الصَّوت وطبقته في مخاطبة صِحاب المقامات المحفوظة من الآباء والعلماء، ليشمل ضبط صوت المؤمنين بعضهم مع بعض عند تساوي المقامات.

المبحث الرابع: ضبط صوت المكلَّفين عند التخاطب فيما بينهم

ومن حفظ الإسلام لمنظومة العلاقات الإنسانية، حفظ مقام الآباء بآيات ونصوص كثيرة، واعتبر أنَّ الحديثَ معهم ينبغي أن يتخذ شكل الإجلال والتَّوقير من حيث مضمون القول، وهيئته، وصفته. ومن الآيات الدالة على هذا الضابط (المعنى) قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ

---

[64] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج:16، ص:306-307

[65] المصدر السابق، ج:16، ص:307

[66] سورة الحجرات، الآية:3

[67] الجامع لأحكام القرآن، ج:16، ص:308

[68] الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. المستدرك على الصَّحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، طبعة: دار الكتب العلمية –بيروت– الطبعة:1، سنة:1411هـ– 1990م، ج:2، ص:501

[69] صحيح البخاري، سورة الحجرات، باب: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي –صلى الله عليه وسلَّم–، ج:6، ص:137

ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرا﴾[70]. قال القرطبي مبيِّنا جنس القول وصورته في الآية: "وقد أُمِر أن يُقابلهما القول الموصوف بالكرامة، وهو السَّالِمُ من كلِّ عيب، فقال: (فلا تقل لَّهُمَآ أُفّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلا كَرِيما)[71]. وقال أيضا في مهيع بيان مدلول عبارة "قول أفٍّ": "أي فلا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرُّم. وعن أبي رجاء العطاردي قال: الأفُّ: الكلام القذع الرديء الخفي. وقال مجاهد: معناه إذا رأيت منهما في حال الشَّيخ الغائطَ والبول الذي رأياه منك في الصِّغر فلا تقذرهما وتقول أفٍّ. والآية أعمُّ من هذا"[72]

وقال في تأويل "ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما". ولا تنهرهما، النَّهر: الزَّجر والغلظة. وقل لهما قولاً كريما، أي ليِّنا لطيفا، مثل: يا أباه ويا أماه من غير أن يسمِّيهما ويكنِّيهما"[73]. وقال في تفسير "واخفض لهما جناح الذلِّ من الرَّحمة" هذه استعارة في الشَّفقة والرَّحمة بهما والتَّذلُّل لهما تذلُّل الرَّعية للأمير والعبيد للسادة، كما أشار إليه سعيد بن المسيّب. وضربَ خفضَ الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطَّائر حين ينتصب بجناحه لولده. والذُّل: هو اللِّين (...) فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان مع أبويه في خير ذلَّة، في أقواله، وسكناته، ونظره، ولا يُحدّ إليهما بصره، فإنَّ تلك هي نظرةُ الغاضب"[74]، ولا يرفع صوته فوق صوتهما، ولا يجعل نبرة خطابه تعلو خطابهما.

وقال الطَّاهر بن عاشور: "وليس المقصود بالنَّهي عن أن يقول لهما "أفٍّ" خاصة، إنَّما النَّهي عن الآذى الذي أقلُّه الأذى باللسان بأوجز كلمة، وبأنَّها غير دالة على أكثر من حصول الضَّجر لقائلها دون شتمٍ أو ذمٍّ، فيُفهم منه النَّهي عمَّا هو أشدُّ أذى بطريق فحوى الخطاب بالأولى.

ثمَّ عُطف عليه النَّهي عن نهرهما ليلاَّ يحسب أنَّ ذلك تأديبٌ لصلاحهما وليس بالأذى. والنَّهر: الزَّجر (...) ثم أمر بإكرام القول لهما. والكريم من كلِّ شيء: الرَّفيع في نوعه (...) وبهذا الأمر انقطع العذرُ بحيث إذا رأى الولد أن ينصحَ لأحد أبويه أو أن يحذِّر مما قد يضرُّ به أدّى إليه ذلك بقول ليِّنٍ حسنِ الوقع. ثم ارتقى في الوصاية بالوالدين إلى أمر الولد بالتواضع لهما تواضعا يبلغ حدَّ الذُّلِّ لهما لإزالة وحشة نفوسهما إذا صارا في حاجة إلى معونة الولَد، لأنَّ الأبوين يبغيان أن يكونا هما النَّافعين لولدهما. والقصد من ذلك التخلُّق بشكره على إنعامهما السَّابقة عليه.

وصيغ التَّعبير عن التواضع بتصويره في هيئة تذلُّل الطَّائر عندما يعتريه خوف من طائر أشدَّ منه إذ يخفضُ جناحه متذلِّلا[75].

وحينما نتدلى في استقراء العلاقة بين الناس، نصل إلى ما يسمَّى بتساوي المقامات. وهذا المستوى أيضا، ضبط الإسلامُ صوت أهله عند التَّخاطب فيما بينهم. وأعني بهذه الصورة من الخطاب مخاطبة النّاس عامة بعضهم لبعض من غير أولى المقامات من الآباء والعلماء المرّبين وأولى الأمر، أي: تخاطب من تساوت رتبهم.

ولئن كان الشَّاعر الجاهليُّ يفخر بكون صوته يعلو على صوت الآخرين عند الجهالة عليه قائلًا:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين[76]

وهي ثقافة من من عادات العرب في الجاهلية عميقة، وثّقتها دواوينهم وضمِّنت في أخبارهم، لقول القرطبي: "وكانت العرب تفخر بجهارة الصّوت الجهير وغير ذلك، فمن كان منهم أشدَّ صوتًا كان أعزَّ، ومن كان أخفض كان أذلَّ، حتى قال شاعرهم:

---

[70] سورة الإسراء، الآية:23-24

[71] القرطبي. أحكام القرآن، ج:10، ص:241

[72] المصدر السابق، ج:10، ص:242

[73] المصدر السابق، ج:10، ص:243

[74] المصدر السابق، ج:10، ص:244

[75] الطاهر بن عاشور. التَّحرير والتَّنوير، ج:15، ص:70

[76] البيت لعمروا بن كلثوم التغلبي من معلقته، يُنظر: أحمد الأمين الشنقيطي، المعلقات العشر وأخبار شعرائها، طبعة: دار النَّصر، ص:113

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرُّواء جهير النِّعم

ويعدو على الأين عدوى الظَّليم ويعلو الرجال بخلق عمم

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية، بقوله: (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)، أي لو أن شيئًا يُهاب لصوته لكان الحمار، فجعلهم في المِثْلِ سواء"[77]

ثمَّ إنَّ هدي النبي محمد –صلى الله عليه وسلَّم– هو كظم الغيظ، واحتمال الأذى من الآخر. وقوَّة الإنسان في امتلاك زمام النَّفس، وضبط انفعالاتها. جاء في الحديث الشَّريف: "ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"[78]. قال ابن حجر: "ليس الشديد بالصرعة، بضمّ الصاد المهملة وفتح الرَّاء: الذي يصرع الناس كثيراً بقوته"[79].

ومن هنا، سار الإسلامُ سيراً حثيثاً في تهذيب صوت الإنسان في شتّى حالاته النفسية، وألزمه نهج طبقة الاعتدال والتّوسُّط عند الحديث مع الآخرين، وهي من وصايا لقمان الحكيم لابنه، والتي خلّدها القرآن الكريم في الآية الكريمة: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[80]. قال ابن كثير مقرِّبا دلالة الآية:" (واغضض من صوتك) أي لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال: (إنَّ أنكر الأصوات لصوت الحمير) قال مجاهد وغيره: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوته، أنَّه يشبَّه بالحمير في علوه ورفع، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى. وهذا التَّشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذَّم"[81].

وقال القرطبي: "(واغضض من صوتك) أي انقص منه، أي لا تتكلَّف رفعَ الصَّوت وخذ منه ما تحتاج إليه، فإنَّ الجهر أكثر من الحاجة تكلُّفٌ يؤذي، وقوله تعالى: (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) أي أقبَحَها وأوحشها، ومنه: أتانا بوجهٍ منكَرٍ. والحمار مثلٌ في الذَّمِّ البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجرَّداً أنَّهم يَكْنون عنه ويرغبون عن التَّصريح فيقولون: الطَّويل الأذنين، كما يُكْنى عن الأشياء المستقذرة"[82].

ومن التَّقييدات التي لقطها القرطبيُّ من الآية، "أنها دليل على تعريف قبح رفع الصَّوت في المخاطبة والملاَحاة (الملاومة والمباغضة) بقبح أصوات الحمير لأنَّها عالية، وأنَّ هذه الآية أدبٌ من الله تعالى بترك الصِّياح في وجوه النَّاس تهاونًا بهم، أو بترك الصِّياح جملة"[83].

فالآية شبّهت رفع الصَّوت بصوت الحمار؛ لما يتّسم به من غلبة الصياح. وصوتُ الحمار كمال فيه، لكنّه في الإنسان نقصٌ واعتلال، ذلك أن الله تعالى كرم الإنسان واصطفاه على المخلوقات الأُخر، ووضعَ له دستوراً يضبطُ حركاته وأفعاله وأقواله ونبرات صوته.

ويقول ابن عطية في بيان فضيلة خفض الصوت وبعدها الأخلاقي: "وغضُّ الصَّوت أوفر للمتكلِّم وأبسط لنفس السَّامع وفهمه. ثم عارَضَ ممثِّلاً بصوت الحمير على جهة التَّشبيه، أي تلك هي التي بَعُدت عن الغضِّ فهي أنكر الأصوات، فكذلك كل ما بَعُد عن الغضِّ من أصوات البشر فهو من طريق تلك"[84].

---

[77] الجامع لأحكام القرآن، ج:14، ص:72

[78] صحيح البخاري، من حديث أبي هريرة، كتاب: الآداب: باب: الحذر من الغضب، ج:8، ص:28

[79] ابن حجر. فتح الباري، ج:10، ص:519

[80] سورة لقمان، الآية :19

[81] ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، ج:6، ص:303

[82] الجامع لأحكام القرآن، ج:14، ص:71-72

[83] ينظر الجامع لأحكام القرآن، ج:14، ص:72

[84] ابن عطية. المحرَّر الوجيز، ج:4، ص:351

ومن مجامع القول في حثِّ الإسلام على لزوم فضيلة غضِّ الصَّوت مقالة لأبي حيان، يقول فيها: "وغضُّ الصَّوت أوفر للمتكلِّم، وأبسطُ لنفس السَّامع وفهمه (...) وقال الحسن: كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فردَّ عليهم بأنَّه لو كان خيرًا فضُل به الحمير (...) وفرغت وصيّة لقمان في قوله: (واغضض من صوتك) ردَّ لله به على المشركين الذين كانوا يتفاخرون بجهرة الصَّوت. ورفعُ الصَّوت يؤذي السامع ويقرَع الصِّماخ بقوَّة، وربَّما يُخرجُ الغشاء الذي هو داخل الأذن"[85].

ومن هنا، يُستخلص كيفية ضبط الإسلام صوت أهله عند الحديث؛ فألزمهم طبقة التوسُّط والاعتدال، ونهاهم عن الصِّياح والتَّصويت ما لم تدعو الحاجة إلى الجهر. و لم يُبح للمؤمن أن يرفَع صوته فوق صوت الآخرين ولو كان المقام مقام العبادة، بل ألزمته شريعة الإسلام خفض الصوت حفاظًا لمساحة راحة الآخرين، وتوفيراً لجوٍّ ملائم في مناجاة خالقهم. وهو ما يفيده حديث أبي مسعود الخدري رضي الله عنه حين قوله: " اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشفَ السِّتر، وقال: ألا إن كلكم مناج ربَّه، فلا يُؤذين بعضكم بعضًا، ولا يرفع بعضُكم على بعض في القراءة، أو قال: في الصلاة"[86]

ومن يتأمَّل حال الناس اليوم يدرك غياب هذه الفضيلة؛ لِما كثر من الضوضاء، ورفع الأصوات، ومن الذهول عن تعاليم الإسلام في ذلك. فغدت فضيلة غضِّ الصوت أعز ما يطلب، وسُنَّت لأجل تدارك ذهابها قوانينُ ضبطية وزجرية معضَّدة بالعقاب والتوعية والتحسيس. وما سبب ذلك إلا ذهول الناس عن دقائق تشريعات الإسلام في هذه الجزئية المرتبطة بضبط الصوت الإنساني.

وخفض الصوت والاعتدال فيه وفي كلِّ شيءٍ من أخلاق المسلم ومن تمظهرات رقيِّ حضارته، ومن صور انسجامه مع الفطرة وحاجات الأمم. ومع تطور الحياة، وتغوُّل المكننة، واشتداد زحام الناس والمركبات بفعل عوامل التمدُّن، وتشارك الناس البنايات تزداد الحاجة إلحاحًا إلى الوعي بأهمية هذه التشريعات التي تُرى مغيَّبة في الخطابات الدينية المعاصرة.

وإذا كان الإسلامُ يحثُّ على غضِّ الصوت والاعتدال في طبقته، سواء تعلق الأمر بالصوت الإنساني الصادر من حباله الصوتية أو صوته المنبعث عن أجهزته وأدواته، فإنَّه ومن شمولية التشريع الإسلامي ودقة تعاليمه، ومن شدَّة مراعاته لمشاعر الإنسان جعل التكلُّم بصوت مسموع واجبًا شرعياً في بعض الحالات؛ فحرَّم الهمس والاسرار استكمالا لنظريته في ضبط الصوت البشري. ومن هذه الصور ما يُصطلح عليه بالنجوى. ومن الأخبار الدالة على هذا المعنى حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال الرسول صلى الله عليه وسلَّم: "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما. فإنَّ ذلك يحزنه"[87]. وفي رواية لمسلم أخرى: "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن يحزنه"[88].

ومعنى لا يتناجى، "من ناجيته سارررته وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض. وقيل: أصله من النَّجاة، وهو أن تعاونه على ما فيه خلاصه، أو أن تنجو بسرِّك من أن يطلع عليك"[89].

وقال القرطبي في شرح دلالة حديث النجوى السالف وتقريب علَّة المنع: "فبيَّن في هذا الحديث غاية المنع وهي أن يجد الثالثُ من يتحدَّث معه كما فعل ابن عمر، وذلك أنَّه كان يتحدّث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجيه حتى دعا رابعًا، فقال له وللأول: تأخَّرا وناجى الرَّجل الطَّالب للمناجاة. خرَّجه الموطّأ. وفيه أيضًا التنبيه على التعليل بقوله: (من أجل أن يحزنه) أي يقع في نفسه ما يحزن

---

[85] أبو حيان الأندلسي، محمد بن يونس (ت:745هـ). البحر المحيط، بعناية محمد جميل العطار (ج1و10)، زهير جعيد، من (ج:2 إلى ج:7)، وعرفان العشاحشونه (ج:8 إلى ج:10)، طبعة: دار الفكر، بيروت، سنة:1420هـ، 2000م، ج:8، ص:417

[86] أبو داود، سليمان بن الأشعث. سنن أبي داود، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة: المكتبة العصرية، صيدا –بيروت–، أبواب قيام الليل، بابٌ في رفع الصَّوت بالقراءة في صلاة الليل، ج:2، ص:38. الحديث صححه الألباني

[87] صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب: السلام، باب: تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث، بغير إذنه، ج:4، ص:1718

[88] المصدر السابق، رقم الحديث :2184

[89] الراغب الأصفهاني. المفردات في غريب القرآن، ص:793

لأجله. وذلك بأن يقدّر في نفسه بأنَّ الحديث عنه بما يكره، أو أنَّه لم يروه أهلاً ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من أُلقيات الشيطان وأحاديث النَّفس. وحصل ذلك من بقائه وحده، فإذا كان معه غيرُه أمن ذلك، وعلى هذا يستوي في ذلك كلُّ الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلًا، لوجود ذلك المنع في حقِّه، بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أولى. وإنَّما خصَّ الثلاثة بالذِّكر، لأنَّه أول عدد يتأتَّى ذلك المعنى فيه. وظاهر الحديث يعمُّ جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور. وسواء كان التناجي في مندوبٍ أو مباح أو واجبٍ فإنَّ الحزنَ يقعُ به"[90].

المبحث الخامس: صوت المرأة في ميزان الإسلام (ضبط الشريعة صوت المرأة)

المرأة كائنٌ متكلِّمٌ صائت مثل الرجل. زودها الله تعالى بقوة إصدار الأصوات وصناعة الكلام، و لم تمنعها الشريعة عن الحديث والخطاب مع النساء أو الرجال طالما هي متقيِّدة بضوابط الإسلام في ذلك. لكن صوت المرأة ليس كصوت الرجل في ميزان الشرع؛ فصوتها زينةٌ وحسنٌ، تغنَّى به الأدباء والحكماء والشعراء، الشيء الذي لا يصدق على صوت الرَّجل.

ولما كان صوت المرأة زينة فيها. والزينة مأمورٌ شرعاً سترها وقصرها على محلِّها لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[91] ساجت الشريعة صوت المرأة بمجموعة من الضوابط، حتى أثير نقاشٌ حول كون صوت المرأة عورة من عدم ذلك. فترجح الأمر في كون صوت المرأة ليس عورة في أصله، لكن يتخلَّلُ صوتَها أحكامٌ فقهية بحسب اعتبارات مقامية وسياقية اجتماعية، فيقول الغزاليُّ: "وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة، فلم تزل النساء في زمن الصحابة رضوان الله عليهم يكلِّمن الرجال في السلام والاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك، ولكن للغناء مزيد أثر في تحريك الشهوة"[92].

وصوت المرأة ليس على منوال واحد في التأثير؛ إذ المرأة التي خُصَّت بجمال الصوت يتوجّه إليها الشرع بخطاب الحذر من إيقاع الفتنة في النفوس، ويحذِّر السَّامع من تتبُّع تقطُّعات صوتها وألحانه ولو كان صوتها في سماع القرآن الكريم. وفي هذا المعنى يقول أبو حامد: "فإن قلت: فهل له حالة يحرم فيها؟ (يقصد السَّماع)، فأقول: إنَّه يحرم بخمسة عوارض (...) العارض الأول أن يكون المسمِّع امرأةً لا يحلُّ النظر إليها وتُخشى الفتنة من سماعها وفي معناه الصبيُّ الأمرد الذي تُخشى فتنته. وهذا حرامٌ لما فيه من خوف الفتنة، وليس ذلك لأجل الغناء، بل لو كانت المرأة بحيث يُفتتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها، ولا سماع صوتها في القرآن أيضًا"[93].

ورغم ما قد يتَّسمُ به صوت المرأة أو بعضهن من القدرة على إحداث فتنة في السَّامع، فإنَّ الإسلام لم يضيِّق على المرأة في الحديث مع الرَّجل مطلقًا عند اشتداد دواعي التخاطب، "و لم تُؤمر النِّساء بستر الأصوات"[94]، إنَّما وجَّه المرأة إلى جعل صوتها على هيئة معيَّنة؛ على صورة تخلو من كلِّ ألوان الترخيم والتغنُّج والتكسُّر، وذلك استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿يَنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[95]. يقول الطاهر بن عاشور مبيِّنًا ما يتميَّز به صوت المرأة: "(فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفًا)، فرَّع على تفضيلهنَّ وترفيع قدرهنَّ إرشادهنَّ إلى دقائق من الأخلاق قد تقع الغفلة عن مراعاتها لخفاء الشُّعور بآثارها، ولأنَّها ذرائع خفيَّة نادرة تفضي إلى ما لا يليق بحرمتهنَّ في نفوس بعضِ ممَّن اشتملت عليه الأمَّة، وفيها منافقوها.

---

[90] الجامع لأحكام القرآن، ج:17، ص:295

[91] سورة النور، الآية:31

[92] الغزالي، أبو حامد. إحياء علوم الدين، طبعة: دار المعرفة –بيروت– ج:2، ص:281

[93] المصدر السابق، ج:2، ص:281

[94] الغزالي. إحياء علوم الدِّين، ج:2، ص:281

[95] سورة الأحزاب، الآية :32

وابتدئ من ذلك بالتحذير من هيئة الكلام، فإنّ الناس متفاوتون في لينه، والنساء في كلامهن رقّة طبيعية، وقد يكون لبعضهنّ من اللطافة ولين النّفس ما إذا انضمّ إلى لينها الجبلّي قربت هيئته من هيئة التدلُّل لقلّة اعتياد مثله إلاّ في تلك الحالة. فإذا بدا ذلك على بعض النّساء ظنّ بعضُ من يُشافِهها من الرِّجال أنّها تتحبَّبُ إليه، فربّما اجترأت نفسه على الطمع في المغازلة فبدرت منه بادرةٌ تكون منافيةً لحرمة المرأة، بله أزواج النبي صلى الله عليه وسلّم اللاتي هنّ أمهات المؤمنين"[96]. ومن هنا، جاء النهي عن الخضوع بالقول. ومعنى الخضوع "التذلُّل، وأطلق هنا على الرِّقة لمشابهتها التّذلُّل (...) أي لا تجعلنه خاضعًا ذليلاً، أي رقيقًا متفكِّكًا (...) والنهي عن الخضوع بالقول إشارةٌ إلى التّحذير مما هو زائدٌ في كلام النّاس من الرقّة وذلك ترخيمُ الصّوت، أي ليكن كلامكنّ جزلاً (...) وعُطِفَ "وقلن قولا معروفا" على "فلا تخضعن بالقول" بمنزلة الاحتراس لئلاّ يَحسَبن أنّ الله كلّفَهنّ بخفض أصواتهن كحديث السِّرار. و"القول" الكلام و "المعروف": هو الذي يألفه النّاس بحسب العرف العام، ويشمل القول هيئة الكلام وهي التي سيق لها المقام، ويشمل مدلولاته؛ ألاّ ينهرن من يكلّمهن أو يُسمعنه قولاً بذيئًا من باب: فليقل خيراً أو ليصمت، وبذلك تكون هذه الجملة بمنزلة التّذييل"[97] .

وفي هذه الآية تحديد وتنصيص على هيئة الكلام وصفة الصّوت الذي يلزم المرأة تمثّلها في نفسها وهي تحادث الآخرين، وهو مضبوط بضابطين: ألا يكون فيه خضوع، أي لين وترخيم، وأن يكون القول معروفًا؛ بمعنى معهوداً عرفاً عامًا من حيث هيئته ومدلولاته، يقول صاحب "ظلال القرآن": "نهاهن من قبل عن النَّبرة اللّينة واللهجة الخاضعة، وأمرهنّ في هذه أن يكونَ حديثهنّ في صورة معروفة غير منكرة، فإنّ موضوع الحديث قد يُطمع مثل لهجة الحديث، فلا ينبغي أن يكون بين المرأة والرّجل الغريب لحنٌ ولا إيماءٌ، ولا هذر ولا هزلٌ، ولا دعابة ولا مزاح، كي لا يكون مدخلًا إلى شيء آخر وراءه لا من قريب ولا من بعيد"[98]. وجاء في "البحر المحيط": "فلا تخضعن بالقول"، فلا تُجبن بقولكنّ خاضعًا، أي لَيِّنًا خَنِثًا، مثل كلام المريبات والمومسات (...) قال ابن عباس: لا ترخِّصن بالقول، وقال الحسن: لا تكلّمن بالرَّفث. وقال الكلبي: لا تكلّمن بما يهوى المُريبُ. وقال ابن زيد: الخضوع بالقول: ما يدخل في القلب الغزل. وقيل: لا تُلِنَّ للرِّجال القولَ. أمر تعالى أن يكونَ الكلامُ خيرًا لا على وجهٍ يُظهر في القلب علاقة ما يظهرُ عليه من اللّين، كما كان الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرّجال برخيم الصّوت وليِّنه، مثل كلام المومسات، فنهاهن عن ذلك"[99]. وعلى هذا، قال القرطبي: "والمرأة تُندب إذا خاطبت الأجانب وكذا المحرمات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة في القول، من غير رفع صوتٍ، فإنّ المرأة مأمورة بخفض الكلام"[100].

وكما ضبط الإسلام صوت المرأة الصادر عن ثغرها، أعني فمها، ضبطَ صوتَها المنبعث من زينتها؛ من الأساور والخلاخل والقلائد، وما يُصدر جرسًا يقصد من ورائه استدعاء انتباه الأجانب من الرِّجال.

يقول ابن كثير في بيان سبب نزول آية: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[101] كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخالٌ صامتٌ لا يُعلم صوتهن ضربت برجلها الأرض، فيعلمُ الرِّجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن ذلك، وكذلك إذا كانت شيء من زينتها مستوراً فتحرَّكت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي لقوله تعالى: (ولا يضربن بأرجلهن) إلى آخره".[102]

والنهي في الآية توجَّه إلى الصوت الصادر عن زينة المرأة الذي يراد من إصداره إظهار الزينة ولفت الانتباه. وكانت عادة مشتهرة في نساء الجاهلية، وثّقها الشاعر الأعشى وهو يصف مشية امرأة في معلّقته بالقول:

---

[96] التحرير والتنوير، ج:22، ص:8

[97] التحرير والتنوير، ج:22، ص:9

[98] سيد قطب. في ظلال القرآن، طبعة: دار الشروق –القاهرة–، ط:32، سنة:1423هـ–2003م، ج:21، ص:2859

[99] البحر المحيط، ج:8، ص:476

[100][100] الجامع لأحكام القرآن، ج:14، ص:178

[101] سورة النور، الآية:31

[102] ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، ج:6، ص:46

كأنَّ مِشيتَها من بيت جـــــــــــارتها مرُّ سحابة لا ريثٌ ولا عَجـَـلُ

تَسمَعُ للحَلي وسواسًا إذا انصـــــــرفت كما استعان بريحٍ عِشرقٌ زَجِلُ

"والوسواس: جرسُ الحلِّي، وإذا انصرفت إذا انقلبت إلى فراشها. والعِشرقُ: شُجيرةٌ مقدارها ذراع لها أكمامٌ فيها حبٌّ صغارٌ، إذا جفَّت فمرَّ بها الرِّيحُ تحرَّك الحبُّ، فشبَّه صوت الحلي بصوت خشخشة العشرق على الحصباء"[103]. فلما جاء الإسلامُ نهى عن هذه العادات سترًا لزينة المرأة، وضبطًا لصوتها استكمالا لنظرية ضبط صوت المكلفين سواء الصادر عن حبالهم الصوتية أو أدواتهم وأجهزتهم. وقال الطبري –في سبب نزول الآية–: "عن المعتمر عن أبيه قال: زعم حضرميٌّ أن امرأةً اتخذت بُرّتين (الخلخال) من فضَّة، واتخذت جَزْعًا (الخرز اليماني) فمرَّت على قومٍ، فضربت برجلها الأرض، فوقَع الخلخال على الجزع فصوَّت، فأنزل الله: (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن)"[104]. وقال القرطبي في كشف اللثام عن دلالة الآية: "(ولايضربن بأرجلهنَّ)، الآية، أي لا تضربُ المرأةُ برجلها إذا مشت لتُسمعَ صوتَ خلخالها، فإسماعُ صوت الزّينة كإبداء الزِّينة وأشد. والغرض التَّستُّر (...) وسماعُ هذه الزينة أشدُّ تحريكًا للشهوة من إبدائها، قاله الزّجاج (...) ومن فعل ذلك منهن فرحًا بحليهن فهو مكروه، ومن فعل ذلك منهن تبرُّجًا وتعرُّضًا للرجال فهو حرامٌ مذمومٌ"[105].

[103] أحمد الأمين الشنقيطي. شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، حقَّقه وأتمَّ شرحه: محمد عبد القادر الفاضلي، طبعة: المكتبة العصرية –بيروت– سنة:1426هـ، 2005م، ص:202

[104] ابن جرير. جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج:17، ص:272

[105] القرطبي. الجامع لأحكام القرآن، ج:12، ص:237–238

خاتمة:

وبعد تطوُّف بين ثنايا البحث ودروبه بهدف كشف اللّثام عن ضوابط الصوت الإنساني في التَّشريع الإسلامي، وما يتعلَّق به من أحكام فقهية وقوانين ضبطية، تخلُّص الدراسة إلى النتائج الآتية:

أولاً: شريعة الإسلامي لم تترك فراغًا فقهيا يتعلَّق بأي شأن من شؤون المكلَّفين، ومن دقَّتها وشموليتها سعت في ضبط أدقِّ قوى الإنسان، وأعني هاهنا طبقات صوته عند التَّخاطب.

ثانيًا: الصوت الإنساني في الفقه الإسلامي مضبوط كسائر أفعال الإنسان بتعاليم الوحي وتوجيهاته. والإنسان حال النُّطق متعبِّد لخالقه في نطقه.

ثالثًا: ضبْطُ الإسلام صوت المكلَّفين تمظهر في صور وأبعاد مختلفة، ومن ذلك: ضبط صوت الإنسان في تواصله مع خالقه، ونبيه – صلى الله عليه وسلم، وتواصله مع ذوي الفضل والأمر من آباء وعلماء وأمراء. وتتمدَّد نظرية التشريع الإسلامي في ضبط الصوت الإنسان إلى توجيه المكلَّفين إلى طبقات الصوت عند التخاطب فيما بينهم عند تساوي المقامات.

رابعًا: خصَّت شريعة الإسلام صوت المرأة بضوابط خاصة تحكمُ صوتَها عند القيام بفعل التخاطب مع الرَّجل الغريب عنها؛ ومن ذلك: عدم اللّين والتغنُّج، ولزوم القول المعروف. كما سعت الشَّريعة في تهذيب صوت زينة المرأة وحليِّها في نصوص خاصة استكمالا لأبعاد نظرية الصوت الإنساني في ميزان الإسلام.

خامسًا: تتظافر النصوص على استحباب خفض الصوت عند التخاطب مع الجهات المختلفة، وفي الحالات المتعدِّدة. كما جاءت نصوص أخرى تحثُّ على رفع الصوت ولزوم طبقة الجهر. وكل ذلك فعل تكليفيٌّ يُتعبَّد به الإله سبحانه وتعالى.

وتوصي الدراسة بالآتي:

حفز جهود الباحثين إلى تجليِّة تشريعات الإسلام المرتبطة بالسلوكات الإنسانية التي تبدو بديهية ومتعالية عن ضوابط التّشريع، والسعيُّ في تعميق بحث موضوع أحكام الصوت الإنساني في المصادر الفقهية وبيان أثر ذلك في الحياة المعاصرة

المصادر والمراجع:

1)- **إبراهيم أنيس.** الأصوات اللّغوية، طبعة: مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بمصر.

2)- **ابن جني،** -عثمان- أبو الفتح. سر صناعة الإعراب، تحقيق: الدكتور حسن هنداوي.

3)- **ابن حجر،** أحمد بن علي. العجاب في بيان الأسباب، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، طبعة: دار ابن الجوزي.

4)- **ابن حجر،** أحمد بن علي (ت: سنة852هـ). فتح الباري بشرح البخاري، اعتناء: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحي الدِّين الخطيب، طبعة: المكتبة السَّلفية -مصر- ط:1، سنة:(1380هـ-1390).

5)- **ابن عاشور،** الطاهر بن عاشور -محمد-. التحرير والتنوير. طبعة الدار التونسية للنشر -تونس-.

6)- **ابن عطية** الأندلسي (ت:542هـ). المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، طبعة: دار الكتب العلمية -بيروت- الطَّبعة: الأولى، سنة:1422هـ.

7)- **ابن فارس** -أحمد-. أبو الحسين(ت:390هـ). معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبعة: دار الفكر، سنة:1399هـ-1979م.

8)- **ابن كثير،** أبو الفداء. تفسير القرآن العظيم، تحقيق: حكمت بن بشير، طبعة: دار ابن الجوزي -السعودية-، الطبعة: الأولى، سنة:1431هـ.

9)- **ابن منظور،** -جمال الدين- أبو الفضل. لسان العرب، طبعة: دار صادر-بيروت-، الطّبعة: الثالثة، سنة:1414هـ.

10)- **أبو حيان الأندلسي،** محمد بن يونس (ت:745هـ). البحر المحيط، بعناية محمد جميل العطار (ج1و10)، زهير جعيد، من (ج:2 إلى ج:7)، وعرفان العشاحشونه (ج:8 إلى ج:10)، طبعة: دار الفكر، بيروت، سنة:1420هـ، 2000م.

11)- **أبو داود،** سليمان بن الأشعث. سنن أبي داود، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة: المكتبة العصرية، صيدا -بيروت- .

12)- **البخاري،** محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله. صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، طبعة: دار ابن كثير، دار اليمامة - دمشق- ط: الخامسة، سنة:1414-1995م.

13)- **تمام حسان** عمر. اللغة العربية معناها ومبناها، طبعة: عالم الكتب، الطبعة الخامسة، سنة:1327هـ-2002م

14)- **التهانوي** -محمد بن علي- (ت: بعد1158هـ). موسوعة كشّاف اصطلاح الفنون والعلوم، مراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، طبعة: مكتبة لبنان ناشرون -بيروت، الطبعة: 1، سنة:1997م.

15)- **الحاكم النيسابوري،** أبو عبد الله محمد بن عبد الله. المستدرك على الصَّحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، طبعة: دار الكتب العلمية -بيروت- الطبعة:1، سنة:1411هـ- 1990م.

16)- **الراغب الأصفهاني** -الحسين بن محمد- أبو القاسم (ت:502هـ). المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، طبعة: دار القلم، الدار الشامية -دمشق- بيروت. الطبعة: الأولى، سنة:1312هـ.

17)- **زبيدة حنون،** جامعة عنابة. البحث الصَّوتي عند ابن جني على ضوء الدِّراسات الحديثة. مجلة اللغة العربية، العدد:15

18)- **الزَّبيدي** -محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس تحقيق: جماعة من المختصين، طبعة/ وزارة الإرشاد والأنباء -المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة: (1965-2001م)-(1385-1422هـ).

19)- **سيد قطب.** في ظلال القرآن، طبعة: دار الشروق -القاهرة-، ط:32، سنة:1423هـ-2003م.

20)- **السيوطي،** جلال الدين. الدرر المنثور في التَّفسير بالمأثور، طبعة: دار الفكر -بيروت.

21)- **شمس الدّين،** أبو عبد الله محمد بن محمد الحطَّاب الرُّعيني (ت:953هـ). مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، طبعة: دار الفكر، الطبعة:3، سنة:1412هـ-1992م.

22)- **الشنقيطي،** أحمد الأمين. شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، حقَّقه وأتمَّ شرحه: محمد عبد القادر الفاضلي، طبعة: المكتبة العصرية -بيروت- سنة:1426هـ، 2005م.

23)- **الشنقيطي،** محمد الأمين (ت:1393هـ). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. طبعة: دار الفكر -بيروت- سنة:1415هـ-1995م.

24)- **الطبري،** ابن جرير -أبو جعفر- (ت :310هـ). جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن، طبعة: دار هجر-القاهرة-، الطبعة: الأولى، سنة:1422هـ-2001م.

25)- **عبد النبي بن عبد الرسول** الأحمد نكري. جامع العلوم في اصطلاحات الفنون. عرَّب عباراته الفارسية: حسين هاني فحص. طبعة: دار الكتب العلمية-بيروت- الطبعة: الأولى، سنة: 2000م-1461هـ.

26)- **الغزالي،** أبو حامد. إحياء علوم الدين، طبعة: دار المعرفة -بيروت-.

27)- **القرطبي،** محمد بن أحمد -أبو عبد الله-. الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، طبعة: دار الكتب المصرية -القاهرة- الطبعة: الثانية، سنة:1384هـ-1964م.

28)- **الكفوي** -أيوب بن موسى-، أبو البقاء(ت:1094هـ). الكليات -معجم في المصطلحات والفروق، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، طبعة: مؤسسة الرسالة.

29)- **مسلم بن الحجاج** -أبو الحسن- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة: مطبعة البابي الحلبي وشركائه -القاهرة- ، سنة:1374هـ-1955م.

30)- **النووي،** محي الدِّين يحيى بن شرف (ت:676هـ). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. طبعة: دار إحياء التُّراث العربي -بيروت-، طبعة: الثانية، سنة: 1392هـ.